

أسباب الخطأ عند المستشرقين

أ. د/ يحيى محمد ربيع

أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر

أسباب الخطأ عند المستشرقين

يحيى محمد ربيع
قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين جامعة الأزهر بطنطا
البريد الالكتروني: yahyarabi.27@azhar.edu.eg

الملخص :
يهدف البحث إلى التعريف بالاستشراق والوقوف على أصناف المستشرقين، وبيان أخطائهم والأسباب التي أدت إلى وقوعهم في هذه الأخطاء، والتأكيد على أنهم لم يلتزموا بمنهجهم بزعمهم أنه يقوم على النزاهة والعدل، فقد تعمدوا الطعن والتشويه في الإسلام، وقد استخدمت في معالجة هذه القضية المنهج التحليل النقدي، من خلال تحليل النصوص ونقدها، وقد توصل البحث إلى عدد من النتائج أهمها: أن الاستشراق على الرغم أنه يضرب بجذوره إلى أكثر من ألف عام إلا أن المصطلح لم يظهر في أوربا إلا في القرن الثامن عشر خاصة في إنجلترا وفرنسا، وأُدرج المصطلح في القاموس بداية القرن التاسع عشر، ومع أن بعض الباحثين يعود بالاستشراق إلى القرن الرابع عشر إلا أننا نعتبر الاستشراق الحقيقي هو الموجه ضد الإسلام، ولهذا نعتبر أن القرن التاسع عشر هو عصر الازدهار للاستشراق، وهي مرحلة تشكله كعلم بدأ في إنجلترا وفرنسا، ومع تعدد دوافع الاستشراق إلا أننا نعتبر الدافع الديني هو الأول والأهم عند الغربيين، ومع تعدد أغراض وأهداف المستشرقين إلا أن الهدف الرئيس هو تشويه الإسلام، وإضعاف المسلمين، وتفكيك وحدتهم، ومع تعدد عوامل الخطأ عند المستشرقين إلا أن المغالطات وتعمد التحريف وعدم النزاهة والتجرد كان منهجا عند أكثرهم مما يعني خيانة المنهج الذي وضعوه بأنفسهم في البحث العلمي، فلم يكن منهجهم مجردا من الميول والأهواء عند دراستهم للإسلام عقيدة وشريعة وتاريخا.

الكلمات المفتاحية: المستشرقون، الإسلام، العقيدة.

Reasons for error among orientalists

Yahya Muhammad Rabie

Department of Creed and Philosophy, Faculty of Theology, Al-Azhar University, Tanta

Email: yahyarabi.27@azhar.edu.eg

Abstract :

The research aims to define orientalism and identify the types of orientalists, and to explain their mistakes and the reasons that led to their occurrence in these mistakes, and to confirm that they did not adhere to their method by claiming that it is based on integrity and justice. Through analyzing and criticizing the texts, the research reached a number of results, the most important of which are: that Orientalism, although it has its roots for more than a thousand years, but the term did not appear in Europe until the eighteenth century, especially in England and France, and the term was included in the dictionary at the beginning. The nineteenth century, and although some researchers refer to Orientalism back to the fourteenth century, we consider the real Orientalism to be directed against Islam, and for this we consider the nineteenth century to be the era of prosperity for Orientalism, a stage of its formation as a science that began in England and France, and with the multiplicity of Orientalist motives, but we consider the religious motive to be the first and most important among Westerners, and with the various aims and objectives of the Orientalists, the main aim is to distort Islam, weaken the Muslims, and dismantle their unity, and with the multiplicity of the factors of error among the Orientalists, the exaggerations Deliberate distortion, lack of integrity and impartiality was a method for most of them, which means a betrayal of the method that they themselves set in scientific research, as their method was not free of tendencies and whims when they study Islam in doctrine, law and history.

Keywords: Orientalists, Islam, belief.

مقدمة

الاستشراق من العلوم التي اهتمت بدراسة الشرق بصفة عامة، ودراسة العلوم الدينية الإسلامية بوجه خاص، والمستشرقون وجهوا عنايتهم بدراسة العلوم الإسلامية، ويعود لهم الفضل في ترجمة كثير من التراث الإسلامي والحفاظ عليه، وإذا كان بعضهم كان غرضه من الدراسة هو البحث والتحري فإن البعض الآخر كانت له أغراض وأهواء أخرى.

لهذا فقد تعددت دوافع المستشرقين، وبناء على هذه الدوافع انقسموا إلى عدة فئات، منهم المعتدل ومنهم المغالي، وفي هذا البحث سنحاول الإلمام بتعريف الاستشراق وبيان مفهومه، وسنبرز بداياته ودوافعه المختلفة، وكذلك نشأته.

والبحث يسلط الضوء على أصناف المستشرقين، وأكثر تركيزا على أخطائهم والأسباب التي أدت إلى الوقوع في هذه الأخطاء، ومن النقاط المهمة التي سيركز البحث عليها منهجهم الذي وضعوه بأنفسهم، وكيف زعموا أن منهجهم سيقوم على النزاهة والعدل، ولكن سيتبين أنهم لم يلتزموا هذا المنهج، وتعمدوا الطعن والتشويه، وقد استخدمت في معالجة هذه القضية المنهج التحليل النقدي، من خلال تحليل النصوص ونقدها.

وقد اشتمل البحث على مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: الاستشراق تعريفه وبدايته.

المبحث الثاني: أسباب ودوافع الاستشراق.

المبحث الثالث: أهداف الاستشراق وأغراض المستشرقين.

المبحث الرابع: وسائل المستشرقين وفئاتهم.

المبحث الخامس: عوامل الخطأ وأسبابه عند المستشرقين.

والله نسأل التوفيق والسداد.

المبحث الأول: الاستشراق تعريفه وبدايته

تعريف الاستشراق:

هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي، وكلمة مستشرق بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله. لكن المعنى الخاص والذي يعنينا في دراستنا للاستشراق، هو أن الاستشراق يعني "الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته"(١).

وعلى هذا فالمستشرقون هم الباحثون المشتغلون بدراسة علوم الشرق وتاريخه وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وينبغي ونحن نتحدث عن التعريف أن نشير إلى أمرين:

الأول: أن مصطلح الشرق في الأصل من وضع الأوروبيين لأن تقسيمك العالم إلى شرق وغرب، وتقسيم الشرق إلى أدنى وأوسط وأقصى يعود إليهم، أو هو بالنسبة لهم.

الثاني: على الرغم من أن الاستشراق يمتد بجذوره إلى ما يقرب من ألف عام إلا أن مفهوم "مستشرق" لم يظهر في أوروبا إلا في نهاية القرن الثامن عشر، فقد ظهر أولاً في إنجلترا عام ١٧٧٩م، وفي فرنسا سنة ١٧٩٩م وأدرج مفهوم "الاستشراق" في قاموس الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٠٨م (٢).

بداية الاستشراق:

تعددت الاتجاهات في تحديد بداية الاستشراق، ويمكن تلخيص هذه الاتجاهات فيما يلي:

الاتجاه الأول: يرجع أصحابه بداية الاستشراق إلى القرن السابع الميلادي، حيث المحاولات التي قام بها النصارى الشرقيون مثل يوحنا الدمشقي (٦٧٦ – ٧٤٩ م)، والذي صنف كتابيه "محاورة مع مسلم" و"إرشادات

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود زقزوق، ص ١٨، ٢٠، كتاب الأمة رقم (٥) لعام ١٤٠٤ هـ، ط. أولى.
(٢) المصدر السابق.

النصارى في جدل المسلمين"[١].

لكننا إذا علمنا أن (يوحنا الدمشقي) كان رجلاً شرقياً عاش في ظل الدولة الأموية، وخدم في القصر الأموي، فلا تعتبر محاولته تلك بداية الاستشراق لأن المفترض في الحديث عن الاستشراق والمستشرقين أن يكون مقصوراً على العلماء الغربيين.

الاتجاه الثاني: وأصحاب هذا الاتجاه يجعلون بداية الاستشراق هو القرن العاشر الميلادي، ويؤخون له بحياة الراهب الفرنسي "جرير دي أوراليك (٩٤٠ – ١٠٠٣)"، حيث رحل هذا الراهب من فرنسا إلى أسبانيا، وتتلمذ على أساتذتها في إشبيلية وقرطبة، حتى صار أوسع علماء عصره معرفة بعلوم العرب، وتقلد بعد ذلك منصب البابوية في (روما) ولقب بالبابا سلفستر الثاني.

الاتجاه الثالث: يذهب (رودي بارت) إلى أن بدايات الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا تعود إلى القرن الثاني عشر، والذي تمت فيه لأول مرة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات اللاتينية، كما ظهر في القرن نفسه أول قاموس لاتيني عربي[٢].

الاتجاه الرابع: يجعل أصحابه بداية الاستشراق في أول القرن الرابع عشر حيث صدر قرار مجمع ڤيينا الكنسي سنة ١٣١٢م، بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية[٣].

ويتمسك الغرب النصراني بهذا التاريخ ويعتبرونه بداية الاستشراق الرسمي أو الاستشراق الكنسي إن صح هذا التعبير.

والحقيقة أن ضابط تحديد زمن معين لبداية الاستشراق يعود إلى تصور الباحث للاستشراق، فإن قصد بالاستشراق مجرد معرفة شيء عن الإسلام أو الاطلاع على علومه والتوجه لدراسته، فلا شك أن بعض الغربيين قصدوا

(١) المستشرقون: نجيب العقيقي، ص ٧٢، ج ١، ط. رابعة دار المعارف، سنة ١٩٨١م.
(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: د. محمود زقزوق، ص ١٨، ٢٠.
(٣) الاستشراق: إدوارد سعيد ص ٨٠، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت سنة ١٩٨١م.

الأندلس في إبان عظمتها ومجدها وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربية، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم، وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات.

أما إن قصد بالاستشراق توجه الغربيين لدراسة الإسلام بقصد الطعن والتشويه تمهيداً لغزو بلاد الإسلام ثقافياً وفكرياً، فلا شك أن هذا قد بدأ بعد الإخفاق في الحروب الصليبية والاستيلاء عليها عسكرياً.

وهذا ما نميل إليه، خاصة أننا لا نؤرخ لبداية معرفة الغربيين بالإسلام بل إننا نؤرخ لذلك الاستشراق الذي يمثل معركة جديدة على العالم الإسلامي، والذي ما زلنا نتجرع سمومها حتى يومنا هذا.

لقد تغير أسلوب المواجهة بين العالم الإسلامي والغرب بعد الحروب الصليبية، فاتجه إلى دراسة عقائدنا وأحكامنا وصارت المواجهة بالكلمة بديلاً عن المواجهة بالقوة العسكرية، ومن هنا كانت النواة الأولى لجمعيات المستشرقين والتي ما زالت تواصل عملها إلى اليوم(١).

ولما كان القائمون على أمر الحروب الصليبية، هم رجال الكنيسة – كما أشرنا سالفاً – فإن ذلك جعلهم في طليعة المهتمين بأمر الإسلام ودراسة جوانبه، لذا نرى القساوسة في طليعة المستشرقين.

وبعيداً عن الخلاف حول البدايات فإن الباحثين يعتبرون القرن التاسع عشر الميلادي بداية عصر الازدهار الحقيقي للاستشراق، وتعتبر مرحلة تشكل الاستشراق كعلم وبدأ ذلك في فرنسا وانجلترا حيث صار علماً قائماً بذاته له رسمه ومنهجه وأغراضه الخاصة.

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي ص ١٨٨، المكتب الإسلامي، ط ٢، سنة ١٩٧٨م.

المبحث الثاني: أسباب ودوافع الاستشراق

لا نستطيع أن نقر هنا أن المستشرقين درسوا الإسلام بدافع واحد، بل اشتركت عدة أسباب دفعتهم إلى هذا اللون من المعرفة، ولذا تعددت الدوافع الاستشراقية منها ما هو ديني، ومنها ما هو سياسي أو استعماري أو اقتصادي أو علمي، وسنشير فيما يلي إلى أهم هذا الدوافع.

أولاً: الدافع الديني:

يرى البعض أننا لا نحتاج إلى استنتاج وجهد في البحث لنتعرف إلى الدافع الأول والأهم للاستشراق عند الغربيين وهو الدافع الديني.

(١)فهم يعلمون ما تركته الفتوحات الإسلامية الأولى، ثم الحروب الصليبية، ثم الفتوحات العثمانية في أوروبا في نفوس الغربيين من خوف من قوة الإسلام، وكره لأهله، فاستغلوا هذا الجو النفسي وازدادوا نشاطاً في الدراسات الإسلامية.

ولذا كان جل همهم أن يطعنوا في الإسلام، ويشوهوا محاسنه.

(٢) واشتدت الحاجة إلى هذا الهجوم في العصر الحاضر بعد أن رأوا الحضارة الحديثة قد زعزعت أسس العقيدة عند الغربيين وأخذت تشككهم بكل التعاليم التي كانوا يتلقونها عن رجال الدين، فلم يجدوا خيراً من تشديد الهجوم على الإسلام لصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم من عقيدة وكتب مقدسة(١).

لذا كان هذا الدافع هو الدافع الرئيسي والمسيطر على الدوافع الأخرى، ونستدل على ذلك بعدة أمور:

أولها: إن معظم المشتغلين بالاستشراق قديماً وحديثاً من رجال الدين المسيحي واليهودي، وليس من المعقول أن نتصور هؤلاء مجردين من عواطفهم الدينية ومواريثهم الثقافية عند عرضهم للإسلام وتحليل قضاياه، بل الظن

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، ص ١٥ – ١٦، المكتب الإسلامي، ط ثالثة، ١٩٨٥م.

الغالب أنهم اندفعوا إلى دراسة الإسلام بقصد الانتصار لمعتقداتهم، يدل على ذلك تصريحات هؤلاء وأقوالهم التي تقطر حقداً على الإسلام.

ثانيها: انصب اهتمام المستشرقين على الدراسات الإسلامية خاصة حيث تناولوا العقيدة، وأصول الفقه، واهتموا بمصدري هذا الدين الكتاب والسنة، وركزوا على لسان الإسلام وهو اللغة العربية، كما ركزوا على حياة نبي الإسلام وسيرته وغزواته (عليه الصلاة والسلام).

والهدف الأساسي من تناول هذه الموضوعات إضعاف المسلم في عقيدته وتشكيكه في جذوره حتى تنطمس هويته ويفقد الثقة بدينه.

ثالثها: صوب المستشرقون دراساتهم حول الإسلام محاولة منهم في إيجاد مواطن الضعف في تاريخ وتراث الإسلام وتوظيفها، وهم كمن وقع على ثوب أبيض به بعض النقاط السوداء فعمد إلى إخفاء حقيقة هذا الثوب ولم يبرز إلى تلك النقاط السوداء، ولذا نراهم قد ركزوا على الخلافات العقائدية والمذهبية، وعلى الخصومات بين الفرق والجماعات الدينية، والتناحر بين المسلمين على الحكم والسياسة، كما عملوا على إحياء الآراء الشاذة رفي الإسلام خاصة التراث الباطني والصوفي المتسم بالغلو والانحراف.

وهنا يلتقي المستشرقين مع أهداف المبشرين في زعزعة العقيدة عند المسلم، ويكفيهم إن لم يصبح مسيحياً ألا يبقى مسلماً!!

وفي جميع الأحوال، فإن من الصعب على معظم المستشرقين المشتغلين بدراسة الإسلام – وأكثرهم من الرهبان ورجال الدين المسيحي كما قلنا – أن ينسوا أنهم يدرسون ديناً ينكر عقائدهم ويتصدى لها بالنقد والتصويب[١].

(١) الاستشراق: إدوارد سعيد، ص ٢٦٥، ترجمة: كمال أبو ديب.

الدافع الاستعماري السياسي:

وهذا الدافع يجعلنا نتساءل في البداية عن العلاقة بين الاستشراق والاستعمار، إن الاستعمار احتلال واستيطان، أو تحكم وسيطرة، فما علاقة ذلك بالاستشراق الذي هو درس وعلم ومعرفة؟ والحق أن العلاقة وثيقة جداً، فالاستشراق هو مقدمة الاستعمار، فقبل السيطرة على قطر من الأقطار كان المستعمرون يرسلون المستشرقين الذين يدرسون المنطقة ويتعرفون عليها، فيقفون على أحوال الناس وشئون البلاد، ويعرفون تماماً نقاط الضعف فيستغلونها، ونقاط القوة فيضعفونها، حتى تتم السيطرة الاستعمارية بعد هذه بعاداتها وتقاليدها ولهجاتها المحلية، كان هؤلاء يعاونون في إرساء حكم الاستعمار والتمكين له، بل كانوا يرسمون لدولهم المستعمرة سياستها في التعامل مع تلك البلاد.

ثم تابعوا دورهم السياسي هذا بعد استقلال الدول العربية والإسلامية؛ وذلك عن طريق عملهم في سفارات دولهم لدى هذه البلاد، بوصفهم مستشارين أو ملحقين ثقافيين؛ حيث تمكنهم ثقافتهم ومعرفتهم باللغة العربية من الاتصال برجال الفكر والصحافة والسياسة، ومن معرفة نواحي الضعف في سياسات العرب والمسلمين بوجه عام.

الدافع العلمي:

لا نستطيع أن نغفل أن فريقاً من المستشرقين قد اتجه لدراسة الإسلام بدافع معرفته أو بدافع حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها، وهذا الفريق من المستشرقين قليل، إلا أن بحوثهم ودراساتهم التي اعتمدوا فيها على المصادر الأساسية بوجه عام أقرب إلى المنهج العلمي السليم، ومنهم من أدرك أن رسالة الإسلام قريبة من الرسالات السماوية، ومؤيدة لما جاء في كتبها من أصول الإيمان، والدعوة إلى الخير والحق، بل إن من هؤلاء من اهتدى إلى الإسلام وآمن به.

وهؤلاء كانت أخطاؤهم أقل من غيرهم؛ لأنهم لم يتعمدوا الدس والتحريف، لكن هؤلاء القلة يحتاجون إلى موارد مالية خاصة تمكنهم من التوجه

إلى هدفهم بإخلاص؛ لأن اتجاههم كان بدافع ذاتي بخلاف جمهرة المستشرقين الذين يتعمدون في الغالب الدس والتحريف، فهؤلاء تقف من ورائهم دول ومؤسسات ومنظمات؛ ولذا فأبحاثهم تلقى رواجاً عند رجال الدين والسياسة(١).

<u>**الدافع الاقتصادي:**</u>

ظهر هذا الدافع في القرنين التاسع عشر والعشرين، فقد اهتم الغربيون بعدة أمور:

منها: استغلال الموارد الأولية والموارد الخام من دولنا والحصول عليها بأبخس الأثمان.

ثانيها: الاهتمام بتوسيع تجارتهم.

ثالثها: جعل المنطقة سوقاً رائجة لبضائعهم.

كل هذا استوجب التعرف على المنطقة ودراسة جغرافيتها الطبيعية والزراعية والبشرية، ومعرفة مداخل ومفاتيح التعامل مع أبنائها حتى يحسنوا التعامل مع تلك البلاد، ويحققوا من وراء ذلك الفوائد الكثيرة التي ستعود على صناعتهم وتجارتهم بالخير الكثير.

من هنا كانت الحاجة ماسة إلى إرسال المستشرقين ليقوموا بتلك الدراسة المطلوبة، وكانت المؤسسات المالية والشركات الاقتصادية تزود هؤلاء الباحثين بالمال، كما كانت الحكومات تمنحهم الرعاية.

كان الدافع لكل هذا هو رغبة الغربيين في التعامل معنا لترويج بضائعهم، واستغلال مواردنا، وقتل صناعتنا المحلية التي كانت مزدهرة في مختلف بلاد العرب والمسلمين(٢).

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: د/ محمود زقزوق، ص ٧٤.

(٢) انظر: المرجعين السابقين، الأول: ص ٧٤، والثاني: ص ١٨.

المبحث الثالث: أهداف الاستشراق وأغراض المستشرقين

من المعلوم أن لبعض المستشرقين أهدافاً حسنة أو علمية خالصة لا يقصد من ورائها سوى البحث والتمحيص، لكننا نرمي هنا إلى الأهداف الضارة والغايات المشبوهة، خاصة إذا علمنا أنها الغالبة على التوجه الاستشراقي، أو هي التي تمثل سياسته العامة، وتقف من ورائها هيئات ومنظمات، أما أصحاب الاتجاه حسن النية فهو وحدهم، ولذا فعددهم قليل ولا يجدون من يقف بجانبهم.

ومن هنا سنقصر كلامنا على تلك الأهداف التي تعكس موقف الاستشراق الحقيقي من الإسلام، ونجملها فيما يلي:

أولاً: بناء الحواجز الثقافية والنفسية بين الإسلام والغرب، لمنع اعتناقهم له أو على الأقل حيادهم في الحكم عليه، لذا عملوا جاهدين لتشويه صورة الإسلام في أعين أقوامهم فأقنعوهم بعدم صلاحيته للحياة، بل عمدوا إلى تخويفهم وترويعهم من المسلمين فوصفوهم بالسفاكين والمتطرفين والإرهابيين، وعمدوا على إخراس الألسنة المنصفة، وإلى تعميق الكراهية والأحقاد وغزو نفوس الغربيين بالأباطيل مما أدى إلى حجب الإسلام عن أوروبا.

ثانياً: تشويه صورة الإسلام في أذهان الفئة المثقفة في العالم الإسلامي مما أدى إلى إضعاف ثقة المسلمين في دينهم وتراثهم وحضارة أمتهم، ولتحقيق هذا الهدف عرض المستشرقون حقائق الإسلام عرضاً مشوهاً، وأبرزوا النقاط السوداء فقط في تاريخ وتراث هذه الأمة وأغفلوا حقائق الإسلام فشككوا في عقيدته، ومثله العليا، مما يجعل المسلم يفقد الثقة في أصوله ويتنكر لهويته، ثم يبحث له عن هوية أخرى، وهم بهذا يمهدون لتحويل ضعاف النفوس إلى اتباع أو ملاحدة[1]. وإذا ما عبر المسلمون عن استيائهم إزاء هذا التحامل الظالم على الإسلام، فإن هذا يعني في نظر بعض الباحثين الغربيين عدم قدرة المسلمين على فهم الأمور فهماً علمياً، فكأن ما توصلوا إليه يتسم بالحياد والموضوعية، ومعنى ذلك أن علينا أن تقبل ما يقوله السادة المستشرقون عن ديننا ونحن صاغرون، وليس لنا حق مجرد التعبير عن الاستياء وإلا فنحن

(١) الإسلام في وجه التغريب: أنو الجندي، ص ٣٧٠ – ٣٧١.

جاهلون(١). !!

إن الاستشراق بهذه الطريقة يذهب إلى محاولة إلغاء النسق الفكري الإسلامي وتشكيل العقل المسلم وفق النسق الأوروبي، وإنجاب تلامذة من أبناء العالم الإسلامي لممارسة هذا الدور، والتقدم باتجاه الجامعات ومراكز الدراسات، والتربية والإعلام، في عالمنا الإسلامي لجعل الفكر والنسق الغربي هو المنهج والمصدر والكتاب(٢).

ثالثاً: فصل المسلمين عن جذورهم، وهذا الهدف مترتب على سابقه فالتشويه والطعن ينتهيان بضعف النفوس إلى ذلك الفصل، لكن كي يتم الفصل عن الأصول العميقة اتجه المستشرقون إلى التشكيك فيما يلي:

مصدر الإسلام: الكتاب والسنة المطهرة، فقد اتجهت جهودهم قديماً وحديثاً إلى محاولة زعزعة الاعتقاد في صحة القرآن وفي مصدره، ولا تقل محاولة المستشرقين في ذلك عن محاولة مشركي مكة الذين قرروا عَلَيْهِمْ غَيْرِ وأنه □□□□□□□□□ ، وأنه (ﷺ) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ، بل إن محاولات المستشرقين لبست أثواباً علمية – والعلم منها براء – حتى صارت قضية تأليف محمد للقرآن أمراً لا يقبل الشك عند المستشرقين.

والحقيقة أن هذه الدعوة لم يكن لها صدى لدى المسلمين، ولذا فقد اتجه المستشرقون إلى التشكيك في الأصل الثاني، وهو السنة، وقد قام بتلك المحاولة عدد من المستشرقين يأتي في مقدمتهم كل من "هورجرونيه" و"جولد تسيهر" و"جوزيف شاخت" الذي تفرد بصياغة "نظرية" جديدة متكاملة – خيالية بالطبع – حول السنة النبوية والتشريع الإسلامي!

ونتيجة طبيعية لهذا التشكيك في مصدري الإسلام يكون الإسلام من صنع محمد، صرح بذلك (رينان) الذي اعتبر الرسالة المحمدية امتداداً طبيعياً للحركة الدينية التي كانت سائدة دون أن تشتمل هذه الرسالة على أي جديد(٣).

ويرى "بارت" أن محمداً تأثر النصرانية، وأنه تعرف عليها من بحيرى

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: د/ محمود زقزوق، ص ٨٠ – ٨١.

(٢) مقدمة كتاب الأمة: ص ١٦، للأستاذ عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة، رقم (٢٧).

(٣) مدخل إلى القرآن: ص ١٣٠، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، سنة ١٩٧٤م.

الراهب، وقد تمثل في نفسه ما عرفه وسمعه من بحيرى، وما عرفه من اتباع اليهودية، وخرج ليعلن على الناس دينه الجديد الذي لفقه من الدينين الكبيرين[١].

٢ – التراث الحضاري: فقد زعم المستشرقون أن حضارة الإسلام منقولة عن حضارة الرومان، وكل ما للمسلمين من فضل هو في مجرد نقل تلك الحضارة إليهم، وهذا يعني تجريد المسلمين من الإبداع الفكري والابتكار الحضاري.

وبهذه النقطة والتي قبلها أراد المستشرقون فصل المسلمين عن أصولهم وجذورهم.

رابعاً: إضعاف روح الإخاء: ومحاولة تفكيك رابطة الدين بين المسلمين، حيث شعر المستشرقون أن جهودهم تتحطم على صخرة الرابطة الإسلامية التي تربط بين قلوب أبنائه على اختلاف لغاتهم وأجناسهم، فعملوا على تفتيت هذه الصخرة.

يقول (هانوتو): "إنه لابد من العمل على تفكيك تلك الرابطة التي تجمع بين المسلمين شرقاً وغرباً فتجعلهم أمة واحدة، وهي رابطة الدين" ويقول: "إن رابطة الإخاء الجامعة بين أفراد المسلمين كفيلة بأن تجعل المسلم في شرق الأرض يهب لنصرة المسلم في غربها، فهي عامل مؤرق لنا"[٢]. أما وسيلتهم لتحقيق هذا الهدف فكانت في إحياء القوميات، وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوب الإسلام، كما سبق الإشارة إلى ذلك.

ولما لم تنتصر هذه الدعوات الإقليمية الضيقة أو على الأقل لم تؤت ثمارها المرجوة، وقع الاستعمار والاستشراق على فكرة العروبة وألبسها ثوباً جديداً[٣].

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: د/ محمود زقزوق، ص ٨٥.

(٢) راجع الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: د/ محمد البهي، من ص ٢٦ – ٢٨.

(٣) التبشير والاستعمار: ص ١٧٥، د/ مصطفى خالدي، د/ عمر فروخ، المكتبة العصرية، بيروت، وراجع ما كتبه الأستاذ الدكتور عدنان زرزور عن القومية في هذا الكتاب.

المبحث الرابع: وسائل المستشرقين وفئاتهم

وسائل المستشرقين:

لا يفوتنا أن نؤكد أن المستشرقين لم يتركوا وسيلة لتحقيق أهدافهم، ونشر أفكارهم إلا سلكوها، ونركز فيما يلي على أهم تلك الوسائل:

أولاً: التدريس الجامعي: لا تكاد تخلو جامعة أوروبية أو أمريكية من معهد خاص للدراسات الشرقية أو الإسلامية والعربية، بل يوجد في بعض الجامعات أكثر من معهد للاستشراق.

وتقوم هذه المعاهد بمهمة التدريس لتخريج الدارسين في أقسام الماجستير والدكتوراه ممن سيواصلون في المجال الأكاديمي الاستشراقي أو من غيره من مجالات السلك الدبلوماسي أو الالتحاق في الأقسام الشرقية بدور الكتب، وفي مراكز البحوث المهتمة بالشرق أو غيرها.

ويلتحق بهذه المعاهد أعدادٌ لا بأس بها من العرب والمسلمين الذين يعودون إلى بلادهم لتولي مهمة التدريس في جامعاتها(١)، ويلحق بالتدريس الجامعي إلقاء المحاضرات في جامعاتنا وجمعياتنا العلمية حيث يستدعي المستشرقون لإلقاء تلك المحاضرات.

ومن المؤسف أن أشدهم خطراً وعداء للإسلام كانوا هم الذين يستدعون إلى الجامعات العربية والإسلامية في القاهرة، ودمشق وبغداد والرباط وكراتشي ولاهور، وغيرها ليتحدثوا عن الإسلام(٢)، بل الأدهى من ذلك أن نستعين ببعض المستشرقين ليقوم بتدريس اللغة العربية، أو يلتحق بأقسامها في جامعاتنا، وذلك يحدث كثيراً، ومن هنا تأتي خطورة ما يتركونه في نفوس الدارسين من آثار.

ثانياً: "التأليف": وهذه الوسيلة ليست في حاجة إلى بيان. إننا نستطيع أن نقول إن آثار الاستشراق وإنتاج المستشرقين لا يزال يحتل الكثير من مواقعنا الثقافية، ويعول عليه كثير من أساتذة الجامعات في العالم الإسلامي.

ولقد تعددت مجالات التأليف في الدراسات الإسلامية عن الإسلام

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د/ محمود زقزوق، ص ٦٠.

(٢) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، ص ٢٦.

واتجاهاته، ورسوله، وقرآنه[١]، وبلغ عدد ما ألفوه منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف العشرين ستين ألف كتاب[٢]، ألفوا في التاريخ وعلم الكلام والشريعة، والفلسفة، والتصوف، واللغة العربية، وتاريخ آدابها، والقرآن والسنة ... إلخ.

وبعض هذه المؤلفات قيمة، وأكثرها تزخر بالطعن في الإسلام وتمتلئ بالأكاذيب التي ليس لها في سوق العلم نصيب[٣].

ثالثاً: عقد المؤتمرات: وذلك لإحكام خططهم في الحقيقة، ومازالوا يعقدون هذه المؤتمرات منذ عام ١٧٨٣ حتى الآن[٤].

ويلي هذه المؤتمرات إصدار المجلات الخاصة ببحوثهم عن الإسلام ونظمه وبلاده وشعوبه، وتقوم على هذه المؤتمرات، وإصدار هذه المجلات جمعيات استشراقية من عدد من الدول الأوروبية[٥].

رابعاً: الترجمة: لقد قام المستشرقون بترجمة الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوروبية كافة، وهذا يعتبر من أهم أعمالهم، وعادت ترجمة معظم هذه الكتب عليهم بالخير العميم، خاصة ما يتعلق منها بالجوانب العلمية، والمنهج التجريبي، علماً بأن هذه الترجمة لم تكن موقوفة عليهم، أو مقرونة بنشأة الاستشراق.

ولقد تمت أول ترجمة للقرآن الكريم في القرن الثاني عشر، ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن، وهم يعدون العديد من ترجمات القرآن إلى لغاتهم[٦]، والخطورة في ترجمة الكتب الإسلامية، والقرآن على وجه الخصوص، تعود إلى ما يلي:

١- إمكانية تحريف النص لدى المستشرقين، فتاريخهم مع الإسلام وعلومه

---

(١) المرجع السابق.
(٢) الاستشراق: إدوار سعيد، ص ٢١٦، ترجمة: كمال أبو ديب.
(٣) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: د/ محمود زقزوق، ص ٦٥ – ٦٦.
(٤) الاستشراق والمستشرقون: ص ٢٧، مصطفى السباعي.
(٥) لمحات في الثقافة الإسلامية: عمر عودة الخطيب، ص ٢٠٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٩٧٧م.
(٦) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: د/ محمود زقزوق، ص ٦٤.

تجعل المسلم يقدم سوء الظن على غيره.

٢- الترجمة أياً كانت درجة أمانة صاحبها ليست هي النص الأصلي.

٣- يمهد المستشرقون لتلك الترجمات بمقدمات تحمل تصوراتهم عن الإسلام؛ وكأنهم يحصنون القارئ ضد الإسلام قبل أن يدخل على حقائقه مما يؤدي إلى اصطدام القارئ مع تلك الحقائق.

ولا شك في أن أسلوب المستشرقين في ترجمات القرآن إلى لغاتهم من الوسائل الخطيرة في تعمية الأوروبيين عن حقائق الإسلام.

ويعزو الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه – الله الأسباب العائقة عن فهم الأجانب للقرآن إلى: جهل بلاغته، وإلى قصور ترجمات القرآن وضعفها، يقول: "إن ترجمات القرآن التي يعتمد عليها علماء الإفرنج في فهم القرآن كلها قاصرة عن أداء معانيه، وإنه لمن الثابت عندنا أن بعضهم تعمدوا تحريف كلمة عن مواضعه، على أنه قلماً يكون فهمهم تاماً صحيحاً، ويكثر هذا فيمن لم يكن به مؤمناً، بل يجتمع لكل منهم القصوران كلاهما: قصور فهمه، وقصور لغته[١].

خامساً: المقالات الصحفية: سواء كانت هذه الصحف تصدر عندهم، أو يصدرونها هم أو صحفاً إسلامية وعربية، استطاعوا شراءها.

وقد أعلن المبشرون أنهم استغلوا الصحافة المصرية خاصة للتعبير عن آرائهم أكثر مما استطاعوا في أي بلد إسلامي آخر، لقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف المصرية، إما مأجورة في أكثر الأحيان، أو بلا أجرة في أحيان نادرة[٢].

سادساً: عمل الموسوعات: ومن ذلك دائرة المعارف الإسلامية، وقد أصدروها بعدة لغات، ولا زالت تجدد طباعتها ويضاف إليها ما يسيء إلى الإسلام يوماً بعد يوم.

وقد حشد لهذه الموسوعة كبار المستشرقين وأشدهم عداء للإسلام، ولذا

---

(١) الوحي المحمدي: ص ٢٤ – ٢٥، المكتب الإسلامي، ط ٨.

(٢) التبشير والاستعمال: د/ عمر فروخ، د/ مصطفى خالدي.

فقد ملئت بالأباطيل[1]، ومن المؤسف أنها مرجع لكثير من مثقفينا ويأخذون ما بها على أنها حقائق مسلمة.

وأيضاً الأطلس الجغرافي التاريخي للشرقين الأدنى والأوسط الذي يتوفر على إعداده مجموعة من المستشرقين في ألمانيا، ويشمل الأقطار الممتدة من السودان غرباً وحتى أفغانستان شرقاً، ومن جنوب بلاد العرب إلى البحر الأسود في الشمال.

وخرائطه لا تتناول المواضع الجغرافية والتاريخية بالمعنى التقليدي، بل تتجاوز إلى مواضع لم يسبق لأحد أن تناولها في الأطالس مثل: المدارس الفقهية، والفتن السياسية، وبعض مظاهر الاتصال وأماكن العبادة، وتوزيع السكان[2].

سابعاً: وأخيراً فإن وسائل المستشرقين تتطور بشكل ملحوظ، فقد تعددت طرق المواجهة الثقافية الحديثة، ويكفي أن نشير إلى مراكز البحوث والدراسات مستقلة أ/ كانت أقساماً في الجامعات العلمية في الغرب، وما يوضع تحت تصرفها من الإمكانات المادية، والمبتكرات العلمية.

والاختصاصات الدراسية تمثل الصورة الحديثة التي تطور إليها الاستشراق، حيث تمكن أصحاب القرار السياسي من الاطلاع والرصد لما يجري في العالم يومياً.

ففي القارة الأمريكية وحدها حوالي تسعة آلاف مركز للبحوث والدراسات منها حوالي خمسين مركزاً مختصاً بالعالم الإسلامي.

ووظيفة هذه المراكز رصد ما يجري في العالم ثم دراسته وتحليله مقارنة مع أصوله التاريخية ومنابعه العقائدية، ثم مناقشة ذلك مع صانعي القرار السياسي، وعلى أساس ذلك تبنى الخطط والاستراتيجيات، وتحدد وسائل التنفيذ، ولعل المختبرات التي تخضع لها القضايا الفكرية أصبحت توازي تلك المختبرات التي تخضع لها العلوم التجريبية، إن لم تكن أكثر دقة[3]، ألا يكفي

(١) الاستشراق والمستشرقون: مصطفى السباعي، ص ٢٨.

(٢) عمر عبيد حسنة، مقدمة كتاب الأمة: رقم ٢٧، ص ٢١، ١٤١١ هـ، ربيع الثاني.

(٣) عمر عبيد حسنة، مقدمة كتاب الأمة: رقم ٥، صفر ١٤٠٤، ص ٨٠.

هذا كي نستيقظ من نومنا العميق.

فئات المستشرقين:

لقد ذكرنا في حديثنا عن دوافع الاستشراق أن من بين هذه الدوافع الدافع العلمي، وأصحابه يدرسون الإسلام لمعرفته وقد يمدحونه أو يهتدون للدخول فيه، هذا يعني أن المستشرقين ليسوا جميعاً على شاكلة واحدة، بل هم متنوعون حسب تلك الأهداف والدوافع.

ويمكن أن نجمل المستشرقين في فئات ثلاث:

الأولى: فريق من المتغطرسين الذين أخذتهم العزة بالإثم، وأعمتهم الضلالة عن الحقيقة العلمية، فراحوا يطعنون فيه، وتقطر أقلامهم حقداً عليه، بعضهم من طلاب الأساطير الذين خيل لهم خيالهم المريض أقاصيص كاذبة، وبعضهم من المرتزقة الذين جندوا أنفسهم وبحوثهم لخدمة المصالح الغربية سياسة واقتصادية، وأغلبهم لا يعرف النزاهة العلمية والبحث الدقيق والحكم النزيه من أمثال "بدويل" و"يريرو" و"سيل" من القرن الثامن عشر(١).

الثاني: فريق ادعى دراسة الإسلام باسم البحث العلمي، لكنهم انحرفوا عن جادة الصواب، وراحوا يتلمسون نقاط الضعف، ويشككون في صحة الإسلام ورسالته، وفي القرآن والسنة ... إلخ.

الثالث: فريق التزم في دراسته للإسلام الموضوعية والنزاهة العلمية وأنصف الإسلام والمسلمين، وأدى الأمر ببعضهم إلى اعتناق الإسلام(٢).

كان لابد من التأكيد على هذه الفئات، حتى لا يظن القارئ أن المستشرقين على شاكلة واحدة، أو أننا نميل إلى العميم في حكمنا عليهم، خصوصاً أمام ما سنعرض له في الفقرة التالية من أسباب أخطائهم، وتجاوزاتهم، ورب الأمثلة والشواهد عليها.

---

(١) – الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: د/ محمود زقزوق، ص ٧٦.

المستشرقون للعفيفي: ج ٣، ص ٦١٩، دار المعارف بالقاهرة، سنة ١٩٨١م.

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د/ محمود زقزوق ص٧٦.

المبحث الخامس: عوامل الخطأ عند المستشرقين

لقد ذكرنا أن أكثر المستشرقين يتعمدون الدس والتحريف، وهذا يخالف أدنى المناهج العلمية في البحث والحكم، لكن المستشرقين يزعمون أنهم موضوعيون، ولا يخالفون المنهج النقدي العلمي في حمهم على الإسلام.

يقول رودي بارت: "نحن معشر المستشرقين عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية الإسلامية لا نقوم بها قط لكي نبرهن على صفة العالم العربي الإسلامي، بل على العكس ... ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهله دون أن نعمل فيه النظر، بل نقيم وزناً فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي ... ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا"(١).

وهذا الكلام يبدو في ظاهره عملاً علمياً لا غبار عليه، لكن الفحص الدقيق أثبت أن كثيراً منه مصنوع، وكثيراً ما يكون الدافع إلى دراساتهم الرغبة في التجريح وتوهين العقيدة الدينية والشريعة الإسلامية.

يقول د/ زقزوق: "والبحث العلمي النزيه لا صلة له إطلاقاً بالرغبة في الطعن والتجريح والبحث عن نقاط الضعف والتشويه وتسقط الأخطاء، والأسلوب العلمي يحتم ضرورة الاستيثاق من صحة النصوص والأسانيد التي نستنبط منها ما نستنبط من نظريات، ولكن الرغبة في التجريح والتشويه كثيراً ما حملت المستشرقين على التماس أسانيد واهية مرفوضة يؤيدون بها ما يقررونه من نظريات(٢).

وحتى نثبت أن كلام المستشرقين النظري عن المنهجية شيء وممارساتهم في دراسة الإسلام والحكم عليه شيء آخر، نعرض فيما يلي

---

(١) الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية: ص ١٠، رودي بارت. ترجمة د/ مصطفى ماهر، القاهرة، سنة ١٩٦٧م.

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: د/ محمود زقزوق، ص ٧٨.

للأسباب التي أوقعتهم في الخطأ، أو التي قادتهم إلى تجاوز المنهج الذي تحدثوا به، بل إلى خيانته في بعض الأحيان ... مع ضرب بعض الأمثلة والشواهد:

أولاً: اللغة:

يقع كثير من المستشرقين في أخطاء علمية جسيمة بسبب جهلهم باللغة العربية وأساليبها، وطرائق التعبير فيها، ويرتبون على فهمهم المغلوط أحكاماً خاطئة، ونتائج غير صحيحة، واللغة العربية لغة ثرية، وتحوي كنوزاً وأسراراً يصعب على غير العربي الإحاطة بها ومعرفة مراميها، فليس من الغريب أن يقع في مثل هذه الأخطاء، يستوي في ذلك المنصفون منهم وغير المنصفين.

ونضرب لذلك مثلاً بالمستشرق الكبير "بروكلمان" في كتابه "تاريخ الشعوب الإسلامية" يقول بروكلمان في هذا الكتاب: "وإذا كان العرب يؤلفان طبقة الحاكمين، فقد كان الأعاجم من الجهة الثانية هم الرعية أي القطيع، وجمعها رعايا، كما يدعوهم تشبيه سامي قديم كان مألوفاً حتى عند الآشوريين"(١).

وقد أخطأ هذا المستشرق من ناحيتين:

الأولى: تعلقه بلفظه رعية تعلقاً لغوياً استنتج منه أن المسلمين عاملوا الأعاجم باستعلاء ونظروا إليهم كقطيع من الغنم أو الماشية، مع أن مادة هذه الكلمة في قواميس اللغة العربية تعني كل مرؤوس، وكلمة "راعي" تعني كل رئيس؟ فالراعي تطلق على رئيس القوم، وعلى راعي الغنم. والرعية تطلق على الماشية وتطلق على القوم.

والكلمة في جميع الحالات تعني الحفظ وسياسة المرؤوس بلطف ورحمة. ففي مختار الصحاح: رعى – الراعي – رعاة، كقاض وقضاة.

راعى الأمر: نظر الأمر إلى أن يصل، الراعي: الوالي، الرعية

---

(١) الاستشراق والمستشرقون: ص ٤٦، مصطفى السباعي.

والعامة[١].

وفي القاموس المحيط: الراعي: كل ولي أمر قوم، والقوم: رعية، وراعيت أمره: حفظته كرعاه[٢].

وعلى هذا فقد أخطأ بروكلمان عندما قصر معنى الرعية على قطيع الغنم، وجعل ذلك نظرة المسلمين إلى الأعاجم !!

الثانية: أخطأ أيضاً عندما زعم أن هذه الكلمة (الرعية) كأنها مصطلح جديد لم يستخدمه المسلمون أن يطلقوه إلا على الأعاجم بعد الفتوحات الإسلامية، وهذا خطأ شنيع؛ لأن اللفظة بمعناها اللغوي الذين أشرنا إليه، أطلقها الإسلام على عامة المسلمين، وكانت تطلق على المسلمين العرب، قبل الفتوحات، وهي نفسها التي أطلقت بعد الفتوحات، فانضوى تحتها كل من انضم إلى المسلمين من غير العرب.

يدل على ذلك الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري عن النبي ((ﷺ)) قال: "ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته" وما أخرجه أيضاً من قوله (عليه الصلاة والسلام): "ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة".

والراعي عند أهل الاختصاص هو "الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما أؤتمن عليه حفظه فهو مطلوب بالعدل فيه والقيام بمصالحه".

فانظر كيف أن الكلمة تلزم الحاكم بالعدل والإصلاح والمساواة، وكيف أن كلمة (رعية) تعني رعاية الحاكم بها – أي بهذه الرعية – والإشفاق عليها، وكيف أن المستشرق تغافل عن كل هذا، أو غفل عنه، أو لم يدركه ويقف عليه.

بل انظر كيف ضرب بكل الوثائق التاريخية عن عدالة الفاتحين المسلمين ومعاملتهم الرعية على السواء دون تفرقة بين العرب وعجم، عرض

---

(١) مختار الصحاح: أبو بكر محمد الرازي، مادة رعى، دار الكتب العربية بيروت.

(٢) القاموس المحيط: مادة (رعى).

الحائط، وتعلق بهذه الكلمة تعلقاً لغوياً غير سليم وغير أمين(١).

ثانياً: عدم النزاهة والتجرد:

كثيراً ما يدخل المستشرق على الفكرة بشيء من التحفز لا يدفعه إلى دراستها سوى الرغبة في التجريح، وتوهين العقيدة الإسلامية من أحكام الإسلام. يدل على ذلك – على سبيل المثال – كتاب "مجد الإسلام" للمستشرق "جاستون فييت" الذي عرض فيه تاريخ الإسلام، فجاء الكتاب ينضح بالحقد والطعن في الإسلام وتاريخه، ولم تكن مهمة المؤلف إلا في اختيار الصفحات بناء على الاتجاه الذي حدده لنفسه كي يسير عليه.

وهنا تكمن خطورة هذا الطراز من التأليف لأن المؤلف مهما اجتهد وتحري الإنصاف في الاختيار لا يمكن أن يتخلص من ميوله.

وباختصار الكتاب كله طعن في النبي والقرآن، وعقيدة الإسلام وتاريخه، والسبب في ذلك أن الكاتب لم يتجرد، وأدى به حقده إلى تحديد الاتجاه الذي خطة لنفسه قبل أن يكتب كلمة واحدة(٢).

ثالثاً: تعمد المغالطات:

أحد المستشرقين الألمان، يدعي "ولهلم هورنباخ" أستاذ في جامعة "بون" بألمانيا جمع نتفاً وشذرات من كتاب "الإصابة" لابن حجر ثم قام بنشرها على أنها كتاب "الردة" للحافظ ابن حجر، وكتاب الردة هذا من كتب ابن حجر التي ضاعت، والتي أشير إليها في بعض المواضع.

قام المستشرق المذكور باستغلال ذلك الوضع فجمع تلك الشذرات من "الإصابة" على أنها تراجم لأشخاص ارتدوا عن الإسلام(٣)، إنه يعرف تماماً أنه يغالط، ويقوم بصنع كتاب من عند نفسه، اختار نصوصه من كتاب آخر، فما

(١) الاستشراق والمستشرقون: مصطفى السباعي، ص ٤٦.

(٢) راجع عرض هذا الكتاب بالتفصيل في نهاية كتاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ص ٤٥٧، د/ محمد البهي، مكتبة وهبة، الطبعة التاسعة.

(٣) أساليب الغزو الفكري: ص ٢٥، د/ علي جريشة ومحمد الزئبق، دار الاعتصام، ط ١، ص ٧٧.

موقف البحث العلمي من مثل هذا؟

ومن مغالطاتهم الخطيرة: تحكمهم في المصادر التي يختارونها فينقلون من كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ومن كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث النبوي، ويصححون ما ينقله الدميري في كتابه الحيوان، ويكذبون ما يرويه الإمام مالك في الموطأ !!!

وقد ضرب البعض مثالاً على هذا النوع من المغالطات، أو على هذا التحكم – المريب – في المصادر، بما نقله المستشرق المجري اليهودي "جولد تسيهر" من كتاب الحيوان للدميري أن أبا حنيفة ((ﷺ)) لم يكن يعرف هل كانت غزوة بدر قبل غزوة أحد أو بعدها؟ وأراد أن يجعل هذه ا لرواية دليلاً على عدم معرفة كبار الأئمة في العصور الأولى بأحكام الإسلام وتاريخ الرسول، ورتب على ذلك حكماً عجيباً هو أن الحديث الشريف ليس من قول النبي إنما هو من صنع القرون الثلاثة الأولى[١].

وكتاب "حياة الحيوان" الذي اعتمد عليه ليس كتاباً في الفقه ولا السيرة، كما أن صاحبه ليس مؤرخاً ولا فقيهاً، إنما هو كتاب جمع صاحبه فيه كثيراً من النوادر والحكايات، واستدل عليها بالروايات غير الصحيحة دون أن يكلف نفسه البحث عن صحتها؛ لأن ما في الكتاب – من النوادر والحكايات – لا ترقى في صحة الروايات، ولا يضيره ضعفها! بل إن الدميري لو حرص على الروايات الصحيحة وحدها، لما وجد سبيلاً لتأليف هذا الكتاب!!

والإمام أبو حنيفة من أئمة الإسلام الكبار، والذي حفلت أمهات المصادر الإسلامية بتاريخه، لكن "جولد تسيهر" يعرض عن كل المصادر الموثقة، ويعتمد على رواية مكذوبة، ومصدر لا يعد أصلاً في الحديث عن الإمام أبي حنيفة، بل إن الإمام أبا حنيفة من أشهر من تحدث عن الغزوات والحروب في الإسلام، وكتب عنه تلامذته ما يدل على علمه بهذا الجانب، بل

(١) راجع الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: ص ٤٤، مصطفى السباعي.

إن من أهم المصادر في هذا الموضوع: كتاب "الرد على سير الأوزاعي لأبي يوسف" وكتاب "السير الكبير" للإمام محمد التلميذ الثاني للإمام أبي حنيفة، وقد شرحه السرخسي، وهما من أقدم المصادر الفقهية في العلاقات الدولة، وفيما يلي يدل على الإلمام الواسع بتاريخ المعارك في عهد النبي ((ﷺ)) والخلفاء الراشدين.

فهل يخفى أمر هذه المؤلفات على (جولد تسيهر) أم أنه تعمد التدليس والمغالطة؟!

رابعاً: العناية الشديدة بجوانب الدراسة التي تخدم أغراضهم:

من أخطر وأبرز ما يتعمده المستشرقون تركيزهم على الجوانب المظلمة والسوداء في تاريخ وتراث الإسلام، والتي لا تعكس صورة الإسلام الحقيقية، أو تاريخ الإسلام في نسقه العام أو الجامع؛ لذا نراهم قد أحيوا الآراء الشاذة، وعمدوا إلى إثارة الخلافات العقدية والمذهبية، واهتموا بإبراز تاريخ حركات الرفض والمناقضة مثل (القرامطة) الذين أظهروهم بمظهر طلاب العدل والإصلاح وهم الذين تآمروا على الدولة الإسلامية، وتعاونوا مع أعداءها، كما اهتموا بإحياء تراث الغلاة من الصوفية، أو التصوف الفلسفي، وكذلك التراث الباطني، المجوسي، والغنوصي القديم – وكأن الإسلام ليس به سوى هذه الصورة القائمة – علماً بأن هذه الاتجاهات مرفوضة إسلامياً، ومخالفة لإجماع الأمة، وتعد أعضاء غريبة على الجسد الإسلامي، فهل من البحث العلمي السليم عرضها على أنها مرآة الإسلام.

خامساً: الأحكام المسبقة:

تقف الدوافع التي تحدثنا عنها في نشأة الاستشراق وراء الكثير من الأحكام المسبقة التي يبحث المستشرق لإثباتها، أو يبحث وهو ينطلق منها.

إن تلك الدوافع تمثل حواجز نفسية رهيبة تمنعهم من رؤية الحق، فضلاً عن إقراره والإذعان به.

ومن أمثلة هذه الأحكام العجيبة، والتي لا يمكن لأي دراسة في ضوئها أن تأتي نتائجها صحيحة أو صادقة ... أو حيادية !!

١- إنكار نزول الوحي على محمد ((ﷺ)) والزعم بأنه كان مجرد مصلح في قومه، وليس نبياً مرسلاً من عند الله، وما يتبع ذلك، ويبني عليه من الزعم بأن القرآن الكريم من "تأليفه" وأن صور الوحي المعهودة في كتب السيرة، ليست أكثر من حالات مرضية كانت تعرض لمحمد (((ﷺ))، وعز وجهه، وتنزه مقامه عن هذه الأباطيل) ... إلخ.

٢- الإسلام دين ملفق من الديانتين اليهودية والمسيحية.

٣- السنة النبوية من صنع المسلمين وليست من أقوال محمد ((ﷺ)).

ونماذج أخرى كثيرة تدل دلالة واضحة على أنهم دخلوا على دراستها بعد أن حكموا، وجهزوا النتائج قبل سوق المقدمات.

وأبحاثهم بهذه الطريقة ليست أبحاثاً علمية ولا موضوعية؛ لأنها تحتوي سيلاً من الشتائم والاتهامات، التي لا تليق بالعامي فضلاً عن العالم، أو العالم الذي يزعم أنه يكتب بموضوعية، بل يزعم أنه بكتابته يعلم الآخرين كيف يكون البحث والتأليف ؟!!

سادساً: تحريف النصوص:

التحريف أسوأ ألوان مجافاة المنهج الصحيح في البحث العلمي، لأنه خروج على هذا المنهج، بل ضرب به عرض الحائط، ولأن تحريف النص يعني تعمد الكذب وقلب الحقائق مع سبق الإصرار، والأدهى أن يرتكب هذا باسم التجرد والدقة والتمحيص، لقد حرص المستشرقون على أن يضفوا على أنفسهم هالة من هيبة العلم وقداسة محرابه، لكن ضبطهم متلبسين بالتزوير جعلنا نقتنع أن ما رفعوه لم يكن إلا شعارات أخفوا وراءها أغراضهم وأهواءهم.

وأبرز من اشتهر بالتحريف منهم "جولد تسيهر" الذي اشتهر بالطعن في السنة، ومحاولة هدمها بكل الوسائل؛ ولو كان ذلك بطريق التحريف والتصحيف !! ومن أبرز الأمثلة والشواهد على ذلك طعنه بابن شهاب الزهري، مع إيهام القارئ بأن الأغراض السياسية كانت وراء عمله التاريخي الهام في (تدوين) السنة الذي صوره جولد تسيهر على أنه (وضع) وتلفيق وخضوع لأهواء السياسيين والحكام!

يعد ابن شهاب الزهري أحد أعمدة السنة، ويكفي أن تفتح أي كتاب ترجم له لتقرأ عن مناقبه وعلو همته وسعة علمه ما لا تتصور أنه يجتمع في إمام.

فماذا قال عنه "جولد تسيهر"؟ زعم هذا المستشرق أن الزهري كان مستعداً لأن يضع الأحاديث لبني أمية، بل وضع فعلاً أحاديث سياسية لصالحهم، وكان ممن يرى العمل مع الحكومة، فلم يكن يتجنب الذهاب إلى القصر، بل كان كثيراً ما يتحرك في حاشية السلطان! يقول جولد تسيهر "بل إننا نجده في حاشية الحجاج في حجه، وهو ذلك الرجل المبغض، وقد جعله هشام مربياً لولي عهده".

والاتهام هنا واضح، فالزهري يضع الأحاديث لذوي السلطان، ويستدل المستشرق على اتهامه هذا بوجود الزهري في حاشية الحجاج في الحج، وهذا كافٍ في تقوية الاتهام.

والإمام الزهري أحد أعمدة السنة، وهدمه هدم للسنة الشريفة، لكن هذا الهدم للزهري، قام على نصوص حرفها "جولد تسيهر" فالإمام الزهري لم يكن مع الحجاج في حاشيته حين حج، وإنما كان مع عبد الله بن عمر حين اجتمع مع الحجاج، وهذا هو حقيقة النص كما ورد في تهذيب التهذيب لابن حجر، "أخرج عبد الرازق في مصنفه عن الزهري قال: كتب عبد الله إلى الحجاج أن اقتد بابن عمر في المناسك، فأرسل إليه الحجاج يوم عرفة: إذا أردت أن تروح فآذنّا، فراح هو وسالم وأنا معهما، قال ابن شهاب: وكنت صائماً فلقيت مع الحر شدة"، فالزهري كان مع عبد الله بن عمر حين اجتمعا بالحجاج، ولم يكن مع معية الحجاج ولا حاشيته كما ذكر المستشرق، بل يمكن أن نقول إن الحجاج هو الذي كان في حاشية عبد الله والزهري؛ لأنه طلبها للاقتداء بهما في المناسك(١).

كما ذكر "جولد تسيهر" عن الزهري أنه اعترف اعترافاً خطيراً في قوله

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ص ١٩٢ – ٢٢٣، مصطفى السباعي.

الذي رواه عند معمر "وقد حدثنا معمر عن الزهري قوله: أكرهنا هؤلاء الأمراء على أن نكتب "أحاديث"".

وهذا النص يفيد أن الزهري وقع في براثن الحكام، وأنه وضع الأحاديث إرضاءً لهم، ولا يشفع له أنه أكره على ذلك.

لكن السؤال هو: أهذا الكلام المنسوب إلى الإمام الزهري صحيح ومن كلامه فعلاً؟ أم إن جولد تسيهر تعمّد فيه التصحيف والتحريف، ليصل من خلال ذلك إلى ما يريد؟

الحقيقة أن "جولد تسيهر" تعمل التحريف، فأصل النص في ابن عساكر وابن سعد هكذا: "الزهري كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس، ويظهر أنه كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكرتهم، ولا يتكلموا على الكتب، فلما طلب منه هشام وأصر عليه أن يملي على ولده ليمتحن حفظه، أملى عليه الزهري أربعمائة حديث، فلما خرج الزهري من عند هشام قال بأعلى صوته:

"يا أيها الناس إنا كنا منعناكم أمراً قد بذلنا الآن لهؤلاء، وإن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة (الأحاديث) فتعالوا حتى أحدثكم بها فحدثهم بالأربعمائة حديث".

ورواه الخطيب بلفظ آخر وهو "كنا نكره كتاب العلم – أي كتابته – حتى أكرهنا عليه الأمراء، فرأينا ألا نمنعه أحداً من المسلمين"(١).

فانظر إلى معنى النص الأصلي وكيف حرفه "جولد تسيهر".

إن الإكراه لم يكن لوضع أحاديث بل كان لتدوينها وكتابتها، أي لتدوين الأحاديث المروية الصحيحة وحفظها في الكتب، حتى لا تبقى محفوظة في الذاكرة فحسب، والنص يدل:

أولاً: على حرص الأمراء على تعلم السنة وتعليمها أولادهم، حتى لو

(١) نقلاً عن المصدر السابق: ص ٢٢١ – ٢٢٢، وانظر مثالاً آخر من تحريف جولد تسيهر في هذا الموضوع نفسه – السنة النبوية – في بحث للأستاذ الدكتور عبد العظيم الديب، بعنوان: "المستشرقون والتراث، حولية كلية الشريعة بجامعة قطر، العدد الرابع ١٩٨٥م.

وصل الأمر بهم إلى حمل العلماء على مخالفة طريقتهم.

ثانياً: أمانة العلماء وعدلهم في التسوية بين بني الأمراء وعامة الناس في طريقة التلقي.

انظر كيف حول "جولد تسيهر" كل هذا إلى لون من خيانة الله ورسوله، بتر النص وانتزعه مما قبله وبعده من جهة، وحذف "أل" من (الأحاديث) لتصير (أحاديث) وعليك أن تقارن بين:

(أكرهون على أن نكتب أحاديث) وهو قول "جولد تسيهر" وبين (أكرهونا على كتابة الأحاديث) أو "كنا نكره كتابة العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء"، وهو قول الإمام الزهري، لترى البون الشاسع بين العبارتين، الأولى تجعل الزهري خائراً ضعيفاً منافقاً يكذب على رسول الله، والثانية تجعله أميناً صدوقاً عادلاً يجله الأمراء ويحترمه الحكام.

لقد قال الزهري يوماً لهشام بن عبد الملك – وهو أمير المؤمنين آنذاك – عندما كذبه في تفسير آية: أنا أكذب؟ فو الله لو ناداني منادٍ من السماء: إن الله أحل الكذب ما كذبت"(١).

ولم يبق إلا أن تضع أمانة وصدق الزهري في كفة، وخيانة وتحريف جولد تسيهر في الأخرى لترى ما هي النتيجة.

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي ص ٢١٥.

الخاتمة

اشتمل هذا البحث على التعريف بالاستشراق ووسائله وأهدافه وفئاته، مع التركيز على عوامل الخطأ عند المستشرقين، وقد خلص الباحث إلى عدة نتائج أهمها:

- مع أن الاستشراق يضرب بجذوره إلى أكثر من ألف عام إلا أن المصطلح لم يظهر في أوربا إلا في القرن الثامن عشر خاصة في إنجلترا وفرنسا، وأدرج المصطلح في القاموس بداية القرن التاسع عشر.
- مع أن بعض الباحثين يعود بالاستشراق إلى القرن الرابع عشر إلا أننا نعتبر الاستشراق الحقيقي هو الموجه ضد الإسلام، ولهذا نعتبر أن القرن التاسع عشر هو عصر الازدهار للاستشراق، وهي مرحلة تشكله كعلم بدأ في إنجلترا وفرنسا.
- مع تعدد دوافع الاستشراق إلا أننا نعتبر الدافع الديني هو الأول والأهم عند الغربيين.
- مع تعدد أغراض وأهداف المستشرقين إلا أن الهدف الرئيس هو تشويه الإسلام، وإضعاف المسلمين وتفكيك وحدتهم.
- تعددت عوامل الخطأ عند المستشرقين إلا أن المغالطات وتعمد التحريف وعدم النزاهة والتجرد كان منهجا عند أكثرهم مما يعني خيانة المنهج الذي وضعوه بأنفسهم في البحث العلمي، فلم يكن منهم مجردا من الميول والأهواء عند دراستهم للإسلام عقيدة وشريعة وتاريخا.

أهم المصادر والمراجع

١.أساليب الغزو الفكري، د/ علي جريشة ومحمد الزئبق، دار الاعتصام، ط ١.

٢.الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود زقزوق، كتاب الأمة رقم (٥)، ١٤٠٤ هـ، ط. أولى.

٣.الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، ط ثالثة، ١٩٨٥م.

٤.الاستشراق: إدوارد سعيد، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت سنة ١٩٨١م.

٥.التبشير والاستعمار، د/ مصطفى خالدي، د/ عمر فروخ، المكتبة العصرية، بيروت.

٦.التبشير والاستعمال: د/ عمر فروخ، د/ مصطفى خالدي.

٧.الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية، رودي بارت. ترجمة د/ مصطفى ماهر، القاهرة، سنة ١٩٦٧م.

٨.السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، ط ٢، سنة ١٩٧٨م.

٩. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د/ محمد البهي، مكتبة وهبة، الطبعة التاسعة.

١٠. لمحات في الثقافة الإسلامية، عمر عودة الخطيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٩٧٧م.

١١. مختار الصحاح: أبو بكر محمد الرازي، دار الكتب العربية بيروت.

١٢. مدخل إلى القرآن، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، سنة ١٩٧٤م.

١٣. المستشرقون: نجيب العقيقي، ط. رابعة دار المعارف، سنة ١٩٨١م.